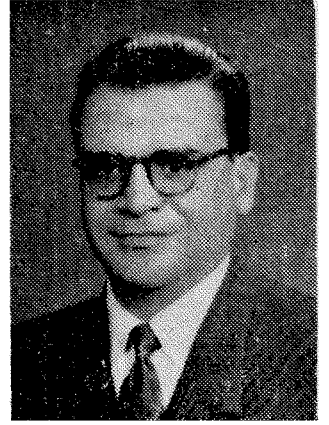


# فلسفة الأدب عند سارتر

بقلم الدكتور عبد العزيز هلال



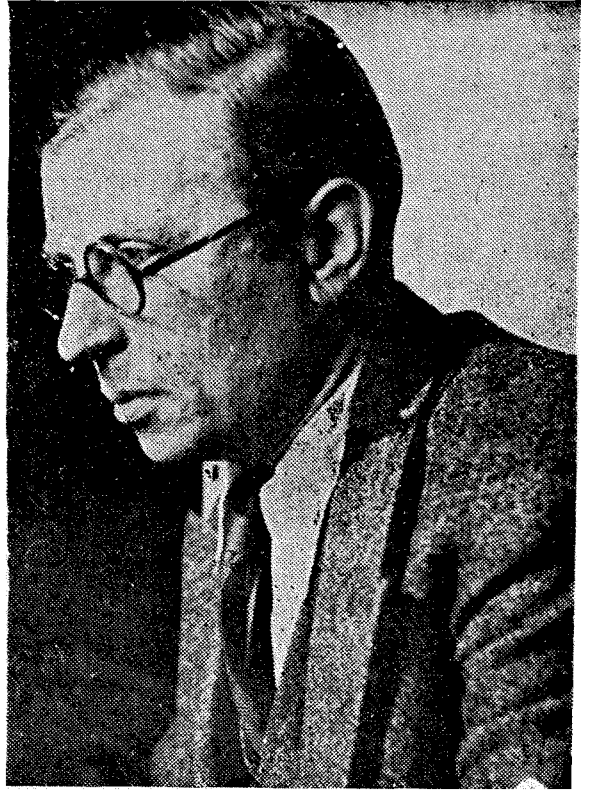
ضد أسرته أو قومه ، يدفعه الى عبادة الذات ، أو الخضوع للاهواء الفردية ، ويسمى ادبهم ادب « التنصل » . فالكاتب على وعي اجتماعي يشارك به في مسائل عصره . يقول سارتر : « اذا توصل المرء الى التفكير في ان المرء لا يهرب من طبقته بمشاعره الجميلة ، وانه لا وجود في اي مكان لشعور ذي امتيازات ، وان الاداب ليست اداب نبل طبقي ، واذا فهم ان خير وسيلة يصير بها المرء مغبونا في عصره ان يستدبره ، او ان يزعم انه يعاؤ عليه ، وان المرء لا يتعالى بعصره حين يهرب منه ، بل حين يواجه التبعة فيه بقصد تغييره ، أي حين يتجاوزه الى المستقبل الاقرب ؟ حين يفهم ذلك كله ، يكتب للجميع ، ومع الجميع ، لان المسألة التي يبحث عنها بوسائله الفنية هي مسألة الجميع » .

ومن المشهور الذي لا نريد ان نطيل فيه هنا ان سارتر يعفي الشاعر من الالتزام ، شأنه في ذلك شأن جمهرة نقاد الغرب . ويعتمد في ذلك على مفهوم الشعر الفئائي الحديث فالشاعر يعتمد على الصور ، لا على الشخصيات والاحداث ، وتعتمد الصور على قوتها الايحائية في الالفاظ والجمل ، على حسب موسيقاها أو على حسب دلالاتها في القرائن ، أو على تراسل الحواس في معانيها ، وما الى ذلك من الوسائل التي بسطها الرمزيون . وبذلك تصبح الكلمات في التصوير الشعري اشبه بالالوان في الرسم ، أو الانغام في الموسيقى ، فتسيطر على العواطف ، وتنفذ فيها ، وتصبح بذلك لها كثافة الاشياء ؛ كلوحة الرسام . وتعدد دلالاتها الى مالا نهاية له كلالاشياء ، فتطغى بذلك من كل جهة على العاطفة التي اثارتها . فاللغة الشعرية ليست في نفسها وسيلة لمعان تخدمها ، ولكنها غاية في ذاتها . ذلك ان الشاعر يخدم الكلمات اكثر مما يستخدمها ، ويقصر التركيب النحوي كما تقصر الدلالات الوصفية للغة ، عن ان تفسر سر التصوير الجمالي في الشعر ، على حين يشف النشر في سر عن قصد المتكلم . ولتوضيح ذلك نضرب مثالا ما اذا قلنا : ان أين ذهب الخادم ؟ فان قصدنا يتضح في سر ، لان الكلام وسيلة لمعنى محدد . ولنقرن هذا المثال بهذا الاستفهام الشعري الذي يورده « سارتر » ، مستشهدا بيتين للشاعر الرمزي الفرنسي « رامبو » ، ترجمناها في هذا البيت :

يا للفصول ! وبالشم قصور ! من لي بنفس غير ذات قصور؟! ثم يعلق سارتر على هذا الاستفهام الشعري قائلا : « ليس ثم مسؤؤل بتوجه اليه الشاعر بالاستفهام ، ولا سائل ، اذ الشاعر غائب وراء تعبيره ، ولا يسمح الاستفهام هنا بجواب ؛ أو بالاحرى : في الاستفهام نفسه الاجابة . او هل هو استفهام تقرييري ؟ لكن من الحق الاعتقاد في ان

الخاصتان الجوهريتان لفلسفة الادب عند سارتر تنحصران في ان الادب الذي يدعو اليه هو ادب التزام اولاً ، ثم هو بعد ذلك ادب موافق . وحول الالتزام تدور أكثر قضايا سارتر العامة في فلسفة الادب ، وحول الواقف تتركز اكثر الخصائص الفنية التي تتطلبها دعوة الالتزام .

واذا التمسنا تعريفا عاما للادب الملتزم عند سارتر فعائنا ان نرجع الى هذه الجمل التي نترجمها من مقال له عنوانه : تأميم الادب : « لأشك ان العمل الادبي واقسع اجتماعي ، وعلى الكاتب - حتى قبل ان يتناول القلم - ان يكون على اقتناع به ، وحقا عليه ان تتخلل المسؤولية كل جوانب نفسه ، فهو مسؤول عن كل شيء : عن الحروب الكاسية أو الخاسرة ، وعن صنوف التمرد وانواع الردع ، وهو شريك الظالمين اذا لم يكن حليفا طبيعيا للمظلومين ، لا لانه كاتب فحسب ، بل ولانه كذلك انسان ، وهذه المسؤولية عليه ان يحياها وان يريدها ( وبالنسبة له يجب ان تكون الحياة والكتابة شيئا واحدا - لا من اجل ان الفن انقضاء للحياة ، ولكن لان الحياة تعبير عن مشروعات ، وقد اختار هو الكتابة مشروعاً له .. ) . . . وعليه ان يلتزم في الحاضر فليس له ان يتنبأ بمستقبل بعيد يمكن ان يحكم عليه بعد بمقتضاه ، ولكنه عليه ان يتعلق بالمستقبل القريب اولاً فأول . . . وليخلق الحاجة الى العدالة والحريية والتضامن ، وليجتهد بعد ذلك في اشباع هذه الحاجات . . . لم اعتقد قط ان المرء ينتج بالشاعر السيئة ادبا طيبا ، ولكني اعتقد ان المشاعر الصالحة ليست معطاة سلفا أبداً ، وعلى كل امرئ بدوره ان يخترعها » . ولا يصح ان تستهوي الكاتب النزعات الفردية ، بل عليه ان يمثل ذاتية الوعي الاجتماعي . ذلك ان الكاتب يخوض نفس المغامرة التاريخية التي يخوضها جمهوره العيني ، وموقفه موقفهم ، متى وضع في حسابانه الا تطغى ابدا مطالب فئة أو طبقة على مطالب غيرها من الفئات والطبقات . وتوحد الكاتب مع قرائه في المغامرة التي يصورها في ادبه يحمله على ان يتحدث عن نفسه في حديثه عنهم ، ووفقاً لتعبير سارتر ، لن تدفعه - حينئذ - « كبرياء ارسقراطية من أي نوع على ان يأبى اتخاذ موقف مما يجري في مجتمعه ، ولهذا لن يستهويه التحليل فوق عصره ليشهد بما هو عليه امام الابدية » ؟ بل يصور شخصياته الادبية مغمورة في وعي العصر ومشكلاته وبيراً من النزعة الفردية التي تحمل كثيراً من الكتاب على وصف جوانب نفسية معزولة ، لا يجد فيها القارئ سوى نفسه بوصفها وحدة مستقلة عن المجتمع والاسرة والوطن ، وهنا يذكر سارتر مؤلفات الكتاب الذين يروضون القارئ



القاريء ان تتلاشى ، فيدخل العمل الادبي في سلسلة الامور الموجهة سلفا وجهة تحكيمية . والكتابة بمثابة تعافد حر كريم بين القاريء والكتاب ، اساسها الثقة المتبادلة بينهما ، ولا يتصور بحال ان يطلب الكاتب من القاريء - في عمل فني ناضج - ان يسوغ استخدام الحرية في اجازته الظلم ، او تصويب الاستعداد . ويتحدى سارتر حصومه ان يذكروا له قصة واحدة جيدة في الادب العالمي كانت غايتها خدمة الاضطهاد ، او كتبت ضد السود ، او ضد العمال ، او ضد الشعوب المحتة . ويقول سارتر : « من الممكن ان تتخيل قصة جيدة مؤلفها امريكي اسود ، حتى لو كانت تفيض ببيض البيض ، اذ حرية جنسه هي التي ينادي بها من وراء هذا البيض . وبما انه يدعوني لاتخذ وقفا كريما ، فلن احتمل - وانا على وعي بحريتي الخالصة - ان اكون بعض هذا الجنس الظالم ، بل اقف ضد الجنس الابيض ، بل ضد نفسي انا بوصفي جزءا منه ، لاهيب بالاحرار جميعا كي يطالبوا بتحرير ذوي الالوان . اذ في اللحظة التي اشعر فيها بان حريتي مرتبطة بحرية الاخرين من الناس رباطا لاينفصم ، لايمكن ان يتطلب مني ان استخدمها في تصويب استعداد بعضهم لبعض » .

وليس من الضروري ان يبحث الكتاب معا او منفردين عن مذهب فكري يؤدون من خلاله رسالتهم الادبية ، بل يجب ان يكونوا من المرونة ، ويسر التجاوب مع الحالات الاجتماعية ، بحيث يظل ادبهم هو المذهب الفكري في ذاتها ، وعن غير متابعة لما هو خارج عن دائرته ، لان الادب يلتزم يؤلف « المجموعة التركيبية لكل ما استطاع العصر ان ينتجه كي يستنير ، دون اغفال للموقف التاريخي وللمواهب » . وهذه المجموعة التركيبية التي يتألف منها الادب ذات قطاعات مختلفة في العمل الادبي . فبعض هذه الاعمال يقف عند الحول الواضحة للظواهر ، وبعضها الاخر يتعمق الى ابعاد من هذا الظاهر في حلول عميقة ، تجمعها كلها « الوحدة الخالقة للعمل الادبي » ، وهو الخلق الحر . ويضرب سارتر لذلك مثلا قصة « الطاعون » لالير كامو ، فهي في وصفها السطحي وصف رائع لمدينة اصيبت بالطاعون ، ووراء هذا الظاهر معان عميقة ، فيمكن ان تكون تصورا لحياة الفرنسيين ايام احتلال الالمان لبلادهم ، واعمق من هذا ان تكون رمزا لموقف الانسان في المجتمعات الحديثة ، وهذا الموقف بذاته متعدد المعاني ، وتتضح هذه المعاني اكثر لو وازن القاريء بين قصة الطاعون ، وبين المسرحية التي حول الير كامو نفسه قصته اليها بعنوان « حالة الحصار » واصدرها عام ١٩٤٨ ، وهذا التعدد للمعاني في نطاق وحدة العمل الادبي الخالقة ، يشبه التناقض في دائرة الوحدة التجميعية ، شأنه شأن الروح ، في اعماقها المختلفة وفي وحدتها في آن ، ويدعوه سارتر : « الكلية المسلوقة الكلية » أي الكلية المجزأة . فالالتزام يستتبع حيوية العمل الادبي في ارتباطه بالعصر وملابساته وتوجيه الوعي فيه وجهة انسانية غير مشروطة . ولا يستلزم ذلك سطحية العمل الادبي ليقف عند نواحي مباشرة ، او سوق الحكم ، او التعبير عن البنيات الصالحة في صورة مواظ ، لانها في ذاتها ، وعن طريق مباشر ، لاتخلق ادبا .

وينتج عما سبق الا يتوجه الكاتب الى القاريء بوصفه فردا من افراد العالم ، ولا للانسان المجرد في جميع العصور ، غير محدد بتاريخ ، كما يفعل كثير من الكتاب الذين يهلون مسائل عصرهم تعلقا بالخلود ، وخوفا من ان ينتهي ادبهم بانتها المسائل التي اتخذوها موضوعا

« رامبو » اراد ان يقول ان كل الناس ذوو نقائص ، او على حد تعبير اندريه برتون في شأن « سان بول رو » : « لو اراد ان يقول ذلك لقاله ، وفي الوقت نفسه ، لم يقصد الى بيان معنى اخر سوى هذا . فلم يفعل سوى ان صاغ استفهاما مطلقا ، ومنح تعبيريا جميلا منبعثا من روحه وجودا استفهاميا ، وبذا صار الاستفهام شيئا من الاشياء . » ولا ينبغي ان نفهم من ذلك ان سارتر يقطع كل صلة بين الشاعر والحياة . فقد يكون مبعث التجربة الشعرية الانفعال والعاطفة الذاتية نفسها ، ثم يقول سارتر : « ولم لا يكون مبعثها كذلك الغضب ، والحنق الاجتماعي ، والحفيظة السياسية ، ولكن كل هذه العواطف لاتتضح دلالتها في الشعر ، كما تتضح في رسالة هجاء او رسالة اعتراف » . فوسائل الشاعر الفنية تجعل عمله غير اجتماعي بطبيعته ، على نقيض الكاتب في قصصه او مسرحياته مثلا .

ولحرية الكاتب - عند سارتر - صلة بموضوع نشاط الكاتب ، وبكمال العمل الادبي في نواحيه الفنية ، في وقت معا . فالحرية من جهة تستلزم المسؤولية في وعي الكاتب الاجتماعي كما قلنا ، ومن جهة اخرى : تتطلب هذه الحرية الا يفرض على الادب شيء خارج عن نطاقه ، فلا يصح ان يسخر الادب لغاية دينية او مذهبية . لتلا ينقلب الى دعاية ، ولتلا يفقد الكاتب بذلك اصالته . وهذا هو معنى الاعتداد بالعمل الادبي « غاية مطلقة » ، والاعتداد بالانسانية كذلك من خلال العمل الادبي . ويتضمن ذلك حرية القاريء المطلقة . والحرية المطلقة عند سارتر هي الحرية المستقلة التي تحمل في ذاتها مبرر وجودها . ولهذا لا يصح ان يثير الكاتب في قارئه انفعالات الرهبة او الاطماع او الغضب ، او حب الذات ، او الضغينة ، والاهواء التي يظل القاريء معها ذا ارادة سليمة . « فاذا ارتاب القاريء في ان الكاتب انما كتب ما كتب عن اهوائه ومن اجل اهوائه ، فلا تلبث ثقة

لكتابهم . فالقيم التي لا ترتبط بموقف تاريخي قيم هزيلة في ذاتها . فالوطنية مثلا في ذاتها كان يدعيها أوغل الأحزاب السياسية في الضلال . وقد ادعى « بيتان » انه خدم بلاده بتعاونه مع العدو . واطلم الناس لايمارى في معنى الحرية في ذاتها ، هذه الحرية المجردة « التي تنادي بها - على سواء - النازية وشيوعية ستالين و الديمقراطية الرأسمالية » - على حد تعبير سارتر . فاذا حصر الكاتب نفسه في نطاقها ، فلن يضيق بكلامه أحد ، ولن ينال به من انسان ، فقد منح سلفا كل ماطلبه ، ولكن الكاتب يظل بها في دائرة التجريد ، كأنه يتكلم في عراء ففر . فليست الموضوعات امام الكاتب سواء ، لانه - اراد ام لم يرد - يتحدث الى معاصريه و بني جنسه من طبقته أو أمته ، وان يكسب قضيته امام شهود غائبين في أبعاد آحاد المستقبل . وانما يكسبها أو يخسرهما هنا ، في صميم عصره ، وبسبب ابناء وطنه . فكيف يتحدث ذوو الالوان من الكتاب عن الحرية الخالدة مجردة من ملابسها الاجتماعية ، وامامهم ابناء جلدتهم يسامون الخسف على يد البيض الذين يؤمنون بالحرية ايضا ، ولكن في معنى مختلف ، لانهم يؤمنون بها لانفسهم فحسب ؟ فالحرية في معناها التجريدي يلغى عندها الظالم والمظلوم ، ولا يبين اعداؤها من دعائها الحقيقيين الا بتحديد الموقف .

وتحديد الكاتب لجمهوره ليس أساسا لتأدية الادب وظيفته في المجتمع فحسب ، ولكنه يتصل اقوى اتصال بالنواحي الفنية ، واختيار الشخصيات والاحداث والمعاني الجزئية التي يختارها الكاتب - ضرورة - على حسب الجمهور الذي يتوجه اليه ، والعصر الذي يعيشه ، ويعيش أحداثه ، وبعد نفسه مسؤولا عنه . وسنعود الى تفصيل شيء من ذلك حين نتحدث عن الموقف ومعناه عند سارتر . ولكن التزام الكاتب بجمهور خاص - بوصفه انسانا ومواطننا ومن طبقة خاصة - يتصل بقضايا اخرى تختص بموضوع نشاط الكاتب . فاذا اغفل الكاتب أنه مرتبط بعصره ومندمج في التاريخ ، جريا وراء حام الخاود في المستقبل ، فإن الادب يقع في خطر التجريد . ويكون الادب تجريديا في نظر سارتر « اذا لم تتح له الاحاطة الشاملة بجوهره ، وذلك عندما يقتصر على وضع مبدأ استقلاله الصريح غير مبال في ذلك بموضوع نشاطه » . والقصد من الاستقلال هنا هو استقلاله عن العصر ومسائله في مضمونه ، فلا تناقض بينه وبين استقلال الادب عن كل مذهب خارج عن نطاقه ، فاستقلال الادب بالمعنى الاخير يقره سارتر ، بل يحتمه . فاذا فقد الادب استقلاله بالمعنى الاخير فانه يقع في خطر اخر يدعوه سارتر « الاستلاب » *Aliénation* وذلك عندما « يخضع للسلطة الزمنية ، او الى مذهب من المذاهب السياسية ، وبعبارة اوجز : عندما يعد نفسه هو وسيلة لا غاية مطلقة من كل قيد » . ومن وجهة النظر هذه يتمثل لنا ادب القرن الثاني عشر ( في فرنسا ) في صورة ادب غير تجريدي ، ولكنه مستلب : فهو غير تجريدي ، اذ فيه يختلط المعنى بالصياغة ؟ فلا يتعلم المرء الكتابة الا ليكتب عن الله ، فكل كتاب من الكتب مسرأة للعالم ، على قدر ما يوصف هذا العالم بانه من خالق الله ؟ فالكتاب غير جوهرى على هامش العمل العظيم . وهو مدح وتمجيد وقربان وانعكاس محض عن غير وعي بذاته . ولهذا السبب وقع الادب في حال الاستلاب ، أي بما انه - على اية حال - الانعكاس المحصن للهيئة الاجتماعية ، لهذا يظل على حال من الانعكاس غير الواعي بنفسه : فهو مرتبط

ارتباطا انعكاسيا بالعالم الكاثوليكي ، ولكن بالنسبة للكاتب يظل هو الشيء المباشر . فهو يسترد ملكيه العالم ، ولكن بضياغ نفسه » . وينتهي سارتر الى النتيجة السابقة من خلال تحليله لما يسميه منطق الادب من خلال تاريخ الادب في فرنسا . ففي حالة ادب القرن الثاني عشر السابقة فان الادب عينيا « لانه يتوجه الى جمهور خاص ، لان الكتاب كانوا من رجال الدين ، يكتبون لرجال الدين ، في موضوع الدين » ولكنه مستلب ، غير واع بنفسه . ثم انتقل من هذه الحال غير الواعية الى حال الوعي بنفسه ، أي حال التوسط الفكري . ولكنه في توسطه الفكري كان تجريديا في ادب القرن السابع عشر ، فعنى بالتجريد النفسي ، وبالمواضيع الصالحة بكل زمان ومكان ، وصارت الشخصيات الادبية أشبه بحيوانات نفسية ، غير اجتماعية ، أي لا تشغل بمسائل السعة . وبلغ أقصى ما قدر له من فرصة لتأدية رسالته الانسانية في القرن الثامن عشر . لانه اصبح سابيا عينيا ، أي يهتم برفض القيم السائدة ، ويزلزلها ، قيم الارستقراطية والنبل الطبقي ، دون تحديد لمطالب بعينها ، ومن ثم نانت سلبينه تجريدية ، أي مطلقة . وكان جمهوره العيني هم البرجوازيين الذين يتطلعون الى القضاء على حقوق الملكية المطلقة والنبل ، في حين ظل جمهوره الاكابي ممثلا في طبقة الفلاحين وطبقة العمال « الضئيلة في ذلك الوقت » ، وأمثالهما ، ممن لم تكن لهم مطالب خاصة ، ولكنهم يشايعون ضمنا مطالب البرجوازيين لمطابقتها لافكارهم الانسانية . ثم وقع الادب « الفرنسي » - في شيخوخة القرن التاسع عشر ، وفي أوائل القرن العشرين - في خطر السلبية المطلقة ، فقطع كل صلته بالمجتمع ، واهتم بتصوير المشاعر الفردية ، وتمثالت فيه ازمة من ازمات الضمير الخلقية عند الكاتب ، فكان ادب اكثر الكتاب هو ادب « التنصل » .

وواضح كل الوضوح ان سارتر يجحد دعوة الفن للفن ، او استقلال الادب عن كل غاية اجتماعية . ويرد على « كانت » - اقوى من فلسف قضية الفن للفن - في قوله بالغائية بدون غاية في العمل الادبي . وعلمنا ان نجمل النقاط التي رد بها سارتر على الفياسوف « كانت » :

١ - يسوي « كانت » بين جمال الطبيعة وجمال الفن ، في حين أن جمال الطبيعة لا تظهر الغاية منه الا بافتراضها فيه ، بخلاف الجمال في الفن ، فانه فيه نفسه الغاية .

٢ - جمال الطبيعة يوجد ثم ينظر اليه ، ولكن جمال الادب لا وجود له الا في العملية العقلية التي تسمى القراءة ، فلا تحقق لوجوده الا من خلال الحركة ، حركة عمالية القراءة .

٣ - لا يمكن الفصل بين الجمال الادبي والقيمة ، بل لا ينظر الى هذا الجمال الا في ضوء القيمة . ولا قيمة للعمل الفني الا في الدعوة الموجهة الى حرية القاريء .

٤ - في الجمال الطبيعي لا وجود لغاية تفرض نفسها علينا في صورة حتمية ، اذ ليس من بينها ما يتجلى لنا فيه مقصود الخالق على نحو قاطع ، بل هو موضوع تأويل وتفسير . وقد يفسر الجمال في الطبيعة تفسيريا علميا ، كجمال قوسي قزح مثلا ، او يكون وليد الصدفة ، كظلال السحاب فوق الماء ، دونه اشجار ، في وقت الاصيل . ولكن اذا نقلت الطبيعة واحداثها الى عالم الفن اصبحت الغاية من جمالها مقصودة للكاتب . وهذه الغاية في العمل الادبي موضوعية بالنسبة للقراء الذين يشركون الكاتب في خلق العمل الادبي وتوجيه معناه ، في حين يظل الكاتب ذاتيا في

خلقه الادبي وتأويله للاحداث ، ولكنه موضوعي - في الوقت نفسه - في عمله الادبي تجاه القراء .

ويستنتج سارتر - من تحاييله التاريخي لمنطق الادب - ان الادب الالتزامي يجب ان يكون هو الادب المتحرر غير المجرد ، أي العيني الذي يتجه الى جماعة من الاحياء في عصر معين ، ويكون موضوعه هو الحرية في جانبها السايي والايجابي . فاذا كانت السايية وحدها كافية لهدم المذهب الفكري للطبقات المستبدة في القرن الثامن عشر ، فانها لم تعد وحدها التي تخدم التاريخ اليوم ، حتى لو اکتلمات في وصفية ، « ولكن ادبنا يجب ان يكون على الاخص ادب بناء » ، « بان نوحى الى القاريء في كل حالة عينية بقدرته على الابرام والنقض ، وبالاختصار : قدرته على العمل » .

ولهذا يسمي سارتر ادبه الذي يدعو اليه « ادب العمل » . « فالادب - بوصفه ساييه - عليه ان يماري في استلاب العمل ، ووصفه خلقة وتجاوزا ، عليه ان يمثل الانسان على انه عمل خالق ، وان يصحبه في جهده الذي يبذله في سبيل تجاوز استلابه الحالي نحو موقف افضل . واذا سلمنا بان المقولات الاساسية للحقيقة الانسانية هي الملكية والعمل والوجود ، فان « سارتر » يقرر ان « ادب الاستهلاك اقتصر على تصوير العلاقات التي توحد بين الوجود والملكية ، فالاحساس مائل فيه على انه متعة ... والذي يعرف فيه كيف يستمتع اكثر من سواه يكون نظيرا لمن وجوده اقوى » ، اما في الادب الملزم فان على الكاتب ان يجاول العلاقات بين الوجود والعمل من ثنابا المسوقف التاريخي . وهذا الادب العيني المتحرر المتوجه به السى جمهور خاص في فترة معينة ، يشف عن معان انسانية عامة اقوى ماتكون من خلال التصوير الخاص . وهذا مايسميه سارتر « المطلق في صميم النسبية » في العمل الادبي .

ويفرق سارتر بين الجمهور والقراء . والخطر على الكاتب ان يتحول جمهوره الى قراء . فالجمهور ذو وحدة عضوية تجمع بين القراء والمستمين او المتفرجين . ويتحقق هذا الجمهور على خير وجه من عهد الثورات ، حين تكون الجماعات متفتحة ، تتطاع الى آمال وجاهدة في سبيل التخاص من آلام مشتركة . وهي - في الوقت نفسه - ام تجمد على مذهب فكري يردها مقفلة على نفسها . ومن الخطر على الادب ان يصبح الجمهور العيني مقفلا على نفسه في مذهب فكري لا يصل اليه الكاتب الا من خلاله ، كالعمال الشيوعيين في فرنسا مثلا ، او الجماعة الكاثوليكية في تعظيمها للكتب ذات النزعة الكاثوليكية . وفي الحالتين يكون تقويم الادب على اساس غير ادبي . وخطر آخر ان يشعر كل قاريء بعزلته عن الآخرين في قراءة الكتب التي تصور المشاعر الذاتية ، وتدعو القاريء الى عبادة نفسه على حساب المجتمع أو الأسرة أو الوطن . وفي الحالتين يتردى الادب في هوة الاستلاب ، ولا يجد طريقه السى جمهور ، ولكن الى قراء متفرقين .

كيفية تحول القراء المتفرقين الى جمهور ذي وحدة متماسكة أو عضوية - على حد تعبير سارتر ؟

موجز ما يقوله سارتر أن نجتذب البنا الجمهور الامكاني مع الجمهور الفعلي ، «توجهين دائما الى الارادات الخيرة ، لان القاريء حين يقرأ - على حد تعبير سارتر -

من مشروع نجاته وتحرره ، والا تضعف الى درجة السايية ، فتقف دون التفكير في تغيير الحالة الراهنة . فالوقوف يتألف من عوائق ومن مقاومة لها في وقت معا . وبه يكون الانسان في تغير دائم تبعا لمشروعه وما يبذله فيه من جهد ، وفيه يتحقق وجود المرء عن طريق العمل والصراع ، بوجوده في حالة ما ، وتجاوزة هذه الحالة في آن : فما الوجود الانساني المشروع سوى وجود في موقف ( الوجود والعدم ، الطبعة الفرنسية ، ص ٦٣٣ - ٦٣٨ ) .

ويدعو سارتر الى مسرح المواقف ( في اواخر الجزء الثاني من كتابه : «واقف » ، قائلا : « كان المسرح فيما مضى مسرح تحليل نفسي للشخصيات : فكانت تعرض على المسرح شخصيات تزيد في تعقيدها أو تنقص ، ولكنها تعرض عرضا تاما في حياتها ، ولم يكن للموقف دور الا في وضع هذه الاشخاص في صراع بعضها مع بعض ، مع بيان كيف يتم التحوير في حياة كل شخصية بتأثير الشخصيات » يتجرد من شخصيته الفعلية ، فيهرب من أحقادها ومخاوفه وشهواته ، ليضع نفسه في الدرجة العليا ، من الحرية ، وهذه الحرية تعد العمل الادبي غاية مطاقه ، وتعد الانسانية كذلك من خلال العمل الادبي ، ويستطاع ، اذن ، توحيدها ، مع ما يسميه « كانت » الارادة الخيرة ، التي تعدد بالانسان غابة لا وسيلة ، وهي التي تتحقق في مدينة الغايات عند « كانت » على انه يجب تأريخ هذه الارادات الخيرة ، عن طريق احكام العمل الفني ومضمونه معسا . فنوجه بموضوع كتبنا مقصد هذه الارادة الخيرة للانسان نحو جيرانه ، اي نحو مهضومي الحق في عالمنا . ولنكن علينا ان نبين للانسان انه يستحيل عليه ان يعامل الناس في عالم حسه على أنهم غايات في المجتمع المعاصر . فالذي يريده الكاتب منه على وجه الدقة - هو القضاء على استغلال الانسان للانسان ، أي تحويل الارادة الخسيرة النظرية الى ارادة داية وعينية ، لتغيير هذا العالم بوسائل محددة ، في سبيل سيطرة مجتمع الغايات العيني مستقبلا ، عن طريق تطور تاريخي طويل » . ويقول سارتر كذلك : « وبالاختصار علينا ان نكافح في سبيل حرية الفرد ، وفي سبيل الثورة الاشتراكية ، وغالبا ما زعموا أنه لم يمكن التوفيق بينهما ، وانما واجبنا الان نمل من الجهد في توكيد ان كلا منهما يستلزم الآخر » .

والادب المتحرر غير التجريدي ، والجمهور العيني - على نحو ما شرحنا - يستلزم كلاهما ان يعبر الكاتب عن مشروع الذي يحقق به وجوده المشروع في « موقف » . وقد اكتسب الموقف عن طريق الفلاسفة الوجودية جلاء أثرية في الادب ودراساته الفنية . وموجز ما يشرح به سارتر الموقف من حيث هو - في كتابه الوجود والعدم - انه علاقة الكائن الحي ببيئته وبالآخرين في وقت ومكان محددين ، وهو كتشف الانسان عما يحيط به من اشياء ومخلوقات ، بوصفها وسائل او عوائق في سبيل حريته ، ولا سبيل الى اتخاذ موقف الا بمشروع يقوم به الفرد مرتبطا بما يحيط به من عوامل يتجاوزها بمشروعه السى غاية له يحاول بها التغيير من حالته الحاضرة ، وهذه العوامل - مهما كانت درجة تعويقها - هي التي تحدد مشروع ، وتشف عن حريته . ويجب أن تتحدد هذه الحرية بتلك العوامل ، فيجب ألا تتبدد الحرية في وهم ، كما اذا كون العبد في القيد مشروع تملك ثراء سيده بدلا

كي يكون الادب هو الضمير الحر لمجتمع منتج . والوعى باستقلال الانسان وحقوقه هو الوسيلة لسيطرة « مدينة الغايات » حيث لن توجد الا ارادات خيرة . ولا سبيل الى توقع هذه المدينة الا بالادب .

ونختتم حديثنا بما يختتم به « سارتر » الجزء الثاني من كتابه « مواقف » : « لا شيء يؤكد لنا أن الادب خالد ، وحظه اليوم - حظه الوحيد - هو حظ أوروبا والاشتراكية والديمقراطية والسلام . ويجب أن نقامر بلعب دوره ، فاذا خسرناه - نحن معشر الكتاب - فتبا لنا ، ولكن تبا للمجتمع ايضا . وقد وضحت أنه بالادب تنتقل الجماعة الى التفكير والتأمل في ذات نفسها ، فتكتسب شعورا باثسا ، وصورة لنفسها يعوزها التوازن ، فلا تنفك تبحث عن تحويلها وتحسينها . ولكن فن الكتابة - بعد - ليس محميا بقوانين العناية الالهية ، فهو من صنع الناس ، يختارونه حين يختارون أنفسهم . فاذا كان على الادب أن يتحول الى دعاية محضة ، والى مسلاة محضة ، تردى المجتمع في حماة الامر المباشر ، أي الحياة بدون ذاكرة ، حياة الحشرات والزواحف . وبقينا ليس كل هذا من الاهمية بمكان . فيسير كل اليسر أن يستطيع العالم الاستغناء عن الادب ، ولكنه يستطيع خيرا من ذلك ايضا ان يستغني عن الانسان » .

محمد غنيمي هلال

القاهرة

## مؤلفات هنا مينه

- المصاييح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- ناظم حكمت : السجن ، المرأة ، الحياة
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- ادب الحرب ( بالاشتراك مع د. نجاح المطار )

دار الآداب

الاخرى فيها . وقد بينت في مكان آخر كيف حدثت تغيرات هامه منذ ويل في هذا الميدان . فقد رجح كثير من المؤلفين ، الى مسرح المواقف . ولم يبق مجال مسرح بحيل استخسيت . فالابطال حريات أخذت في الفج ، مثلنا جميعا ، فما المخرج ؛ ولن تكون كل شخصيه شيئا سوى اختيار مخرج ، ولن تساوي أكثر من المخرج الذي تختار . ونتمنى أن يصير الادب كنه خلقيا وجدليا مثل هذا المسرح الجديد ، أي يصير أدبا خلقيا لا ادب وعظ . وليوضح هذا الادب - في بساطة - أن الانسان أيضا قيمة ، وأن المسائل التي يضعها لنفسه دائما خلقية . وعلى الاخص ، ليبين لنا الادب في كل امرىء الانسان المبتكر . وكل موقف - في معنى من معانيه - بمثابة مصيدة فتران : جدران في كل مكان ، وقد عبرت من قبل تعبيرا قاصرا : فليس من محارج يختار منها . فالمخرج شيء يبتكر . وكل امرىء يبتكر نفسه بابتكاره لمخرجه الخاص ، فعلى المرء ان يبتكر كل يوم . » وكذلك الموقف في القصة . والاعمال الادبيية المستوحاة من مثل هذه المهام « يقترحها المؤلف على القاريء واجبات تتطلب الإداء ، وتدعو الى متابعة البحث دون وضع خاتمة له ، وتحمل على مشاهدته تجارب يظل المخرج منها غير يقيني . وبما أنها ثمرة عذاب وتساؤل ، فانها لا يمكن أن تكون مجرد متعة للقاريء ، ولكنها عذاب وتساؤل . فاذا منح المؤلفون فيها النجاح لم تكن صفوف مسلاة ، بل مسائل تستغرق التفكير » . ويعود سارتر - في احدى مقالاته - عن العلاقة بين المسرح والموقف ، وموضوعات المسرحية : « اذا كان حقا أن الانسان حر في موقف خاص ، وأنه يختار نفسه عن حرية في موقف خاص ، وأنه يختار نفسه في الموقف وعن طريق الموقف ؟ اذن علينا أن نعرض في المسرح مواقف بسيطة وانسانية ، وحرية تختار نفسها في مواقف . وأبلغ ما يعرضه المسرح تأثيرا هو عرض شخصية في طريق تكوين نفسها بنفسها ، في لحظة الاختيار ، عن قرار حر يرتبط به نوع من الخلق والحياة . وبما أنه لا وجود لمسرح الا اذا تحققت وحدة جميع المتفرجين ، فعلى المرء أن يبحث عن مواقف جد عامة بحيث تكون مشتركة بين الجميع . ولدينا مسائلنا : مسألة الغاية والوسائل ، ومشروعية العنف ، ومسألة نتائج العمل ، ومسألة علاقات الشخص بالجماعة ، وعلاقات المشروع الفردي بالقيم التاريخية الثابتة ، وهنات أمور أخرى . ويبدو لي أن واجب المؤلف المسرحي أن يختار من بين هذه المواقف الجديدة الموقف الذي يعبر أكثر من سواه عما يشغله من مسائل ، ويقدمه الى الجمهور ، بوصفه مسألة معروضة على بعض الحريات » .

وعلى الرغم من أن سارتر يرى مجابهة الموقف فيما له من حدة وعنف ، لان الوقوف على المواقف الاشد حلقة في نفسه هو أول درجة للتحكم فيها ، يرى مع ذلك أن تكافح الحرية في سبيل نجاتها من مأزقها باختيارها يتفق والارادة الخيرة التي سبق أن شرحناها . فالمواقف اختبار للحريات ، وهذه الحريات قوى متعالية . يقول سارتر في تقديمه لمجلة « الازمان الحديثة » عام ١٩٤٥ : « في بعض المواقف لا مكان الا لتبادل حدبن احدهما الموت . ويجب ان يتصرف المرء بحيث يستطيع الانسان في كل حالة أن يختار الحياة » . فكما يحقق الانسان وجوده بالموقف ، كذلك ينبغي أن يشارك بأدبه في تحقيق المواقف الانسانية ،